

الطب العربى

الدكتور إبراهيم بيومى مذكور

لم يبق اليوم شك فى أن هناك طباً عربياً ، عرف بمنهجه وموضوعه ، واشتهر بآرائه ونظرياته ، وقام على أمره نفر من كبار الأطباء ، ووضعت فيه بحوث ومؤلفات تعد بين المؤلفات الطبية الهامة فى التاريخ قديمه وحديثه ، واعتبرت ثروة بشرية أفادت منها ثقافات مختلفة ، أخذ هذا الطب وأعطى ، أخذ عن طب اليونان ، وعن بعض البحوث الطبية فى فارس والهند ، وأضاف إليها ما أضاف ، وأضحى طباً عربياً خالصاً .

ثم أعطى الثقافات المعاصرة له ، من سريانية ، وعبرية ، ولاتينية ، وأفادت منه ما أفادت . عمر طويلاً ، فقد ظهر فى القرن الثامن الميلادى ، وامتد إلى التاريخ المعاصر . درس فى بعض المعاهد الأوروبية إلى القرن السابع عشر ، وكان عماد الدراسات الطبية فى بعض المعاهد العربية إلى أخريات القرن الماضى ، ولا يزال يعول عليه حتى الآن فى باكستان . ويلاحظ كامل حسين بنقى أنه فيما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر الميلادى ، لم يعرف طب فى العالم إلا الطب العربى .

* * *

وستتابع هذا الطب فى أصوله ومصادره ، فى نشأته ومراحل نموه . فى مدارسه وكبار رجاله ، ثم نقف قليلاً عند أثره وإفادة الغرب منه .

(أ) أصوله ومصادره

كان للعرب فى جاهليتهم تطبيب ووصفات علاجية اكتسبوها من تجاربهم الخاصة ، أو استمدوها من تجارب جيرانهم . وكان لهم ولوع ببعض الحشائش والعقاقير ، كالشيع والقيصوم . وامتد قدر من هذا إلى صدر الإسلام ، ولم ير المسلمون غضاضة فى أن يفيدوا منه ، وزادت الفتوحات الإسلامية هذه الثروة

التقليدية ، وأضافت إليها تجارب شعوب أخرى . إلا أن هذا كله لا يعد من علم الطب في شيء ، وما أشبهه بما نسميه «الوصفات البلدية» التي لا تزال تخبأ بيننا إلى اليوم . ولم يبدأ البحث الطبى المنظم لدى العرب إلا فى أخريات القرن الأول للهجرة ، ودفعته الحضارة الجديدة على أيدى العباسيين إلى الأمام شيئا فشيئا . فلم ينشأ الطب العربى دفعة واحدة ، بل نما وترعرع على مر الزمن ، وأخذ عن مدرستين طبيتين سابقتين ، هما مدرسة الإسكندرية ، ومدرسة جنديسابور .

١ - مدرسة الإسكندرية

ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وعُمِّرت إلى القرن السابع الميلادى . خلفت مدارس بلاد اليونان ، وربطت الشرق بالغرب ، وكانت ملتقى ثقافات مختلفة . غرس فيها البطلمة من قديم روح البحث العلمى ، برغم ميلهم إلى النعيم والترف . فأنشأوا مكتبتها الكبرى الشهيرة ، ومعهد العلوم (الموسيون) الذى قام على أمره زمنا استراتون الرئيس الثانى للمدرسة المشائية . وفى هذا المعهد درست الهندسة والفلك ، والطب والتشريح . وامتدت هذه الدراسات إلى التاريخ الميلادى . بل إلى الفتح الإسلامى . ومن الثابت أن خالد بن يزيد الأموى (٧٠٤) حاول أثناء ولايته على مصر فى أخريات القرن السابع الميلادى أن يترجم بعض الكتب الطبية والكيميائية ، وزاد الأخذ عن مدرسة الإسكندرية فى القرنين التاليين .

وطب مدرسة الإسكندرية فى أساسه جالينوسى ، وفيها قام أنقلاؤس ، وهو زعيم المدرسة الطبية ، يجمع كتب جالينوس فى ستة عشر جزءا ، سميت «المجموعة الجالينوسية» وقد عنى العرب بالبحث عن هذه المجموعة وترجمتها إلى العربية ، واضطلع بذلك خاصة حنين بن اسحق (٨٧٧ م) زعيم المترجمين فى الإسلام . والواقع أن طب جالينوس (٢٠٠ م) ، فى أساسه ، إحياء لطب أبقرات (٤٦٠ ق . م) ، وأخذ بمبادئه ، وشرح وتوضيح له ، وإن اختلف عنه فى بعض القضايا . وأضاف إليه جديدا ، وخاصة فى التشريح . وقد تأثر به الأطباء العرب أكثر مما تأثروا بطب أستاذه الأول . وفى مدرسة الإسكندرية تربى أطباء مشاركة أخذ عنهم العرب ، أمثال سرجيوس الرسعنى أو الرأس عيني (٦٩٤ م) . وغذت تعاليمها

بعض المدارس الدينية الشرقية القديمة في الرها . ونصيبين ، وإنطاكية .
فغذى طب الإسكندرية الطب العربى بأوفى نصيب .

٢ - جنديسابور

هى تلك المدينة الفارسية التى أسسها سابور الأول (٢٧٢ م) ، وأسكن فيها أسراه من بعض الشعوب اليونانية . وازدهرت فيها مدرسة طبية منذ القرن الخامس الميلادى أيام كسرى أنوشروان . وجمع طبها بين التجارب الهندية الفارسية والنظريات اليونانية ، فأفادت من البحث النظرى والدراسة العملية فى مستشفائها الكبير . وامتدت إليها الفتوحات الإسلامية على أيدى أنى موسى الأشعرى (٦٥٧ م) فى عهد عمر بن الخطاب (٦٤٤ م) . ويظهر أن أمرها لم يخف على العرب قبل الإسلام ، فقصدوها بعضهم ، وتعلم الطب فيها ، وأخصصهم الحارث بن كلاء (٦٧٠) الذى يمكن أن يعد طبيب الإسلام الأول ، ويقال إن النبى (ﷺ) كان يأمر من به علة أن يذهب إليه ويتطبب عنده .

ولكن شأن مدرسة جنديسابور الطبية لم يذع ولم يعمل إلا فى صدر الدولة العباسية ، وعلى أيدى الخليفة المنصور (٧٧٥ م) بوجه خاص ، وقد استدعى جرجيس بن بختيشوع (٧٧٠ م) رئيسها وشيخ أطبائها . وقدر له ولأبنائه وأحفاده من بعده أن يقضوا نحو قرنين فى حظوة لدى الخلفاء والأمراء العباسيين ، فكان منهم الوزراء ، وأطباء البلاط ، والمشرفون على المستشفيات ، وأساتذة الطب والمترجمون . وعلى رأسهم جبريل بن بختيشوع (٨٣٠ م) ، وقد نال حظوة كبرى لدى الرشيد (٨٠٣ م) الذى قال لأصحابه يوما : « من كانت له حاجة ، فليخاطب فيها جبريل ، لأنى أفعل كل ما يطلبه » وانضم إلى آل بختيشوع أطباء آخرون من جنديسابور ، وفى مقدمتهم يوحنا بن ماسويه (٨٥٧ م) رئيس بيت الحكمة ، ومدير مستشفى بغداد فى عهد المأمون ، وأستاذ حنين بن أسحق . فوضعت جنديسابور اللبنة الأولى فى بنیان الطب العربى ، وأتمت الإسكندرية هذا البنيان وشيدته .

(ب) نشأته ونموه

مر الطب العربى بمراحل ثلاث ، أسلمت كل واحدة منها إلى الأخرى ، وهى على التوالى : مرحلة النشأة والتكوين ومرحلة الشرح والتلخيص ، ومرحلة التحليل والتجربة

١- مرحلة النشأة والتكوين

هى مرحلة الرواد والمترجمين ، بدأت فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، وامتدت إلى القرن التاسع . دعا إليها المنصور ، وعززها الرشيد والمأمون . بدأت فى بغداد ثم لم تلبث أن أرسلت أعضائها على بعض المدن الأخرى . أخذت عن الثقافات السابقة ، وعولت بخاصة على الثقافة اليونانية . ولقد عنى العرب بجمع أصولها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فبعثوا فى طلبها البعوث إلى القسطنطينية والإسكندرية . ولم يفهم أن يبحثوا عنها فى أماكن أخرى . ونظموا حلقات ومدارس للترجمة ، وأهمها مدرسة حنين بن اسحق التى تخصصت أو كادت فى ترجمة الكتب الطبية . وتشهد هذه الحركة بتسامح لا نظير له فى ثقافة أخرى قديمة أو حديثة . فاشترك فيها النصارى من نساطرة ويعاقبة ، واليهود والصابئة ، إلى جانب المسلمين . وبرهنوا على أن العلم لا وطن له ، وأن طلبه لا يتعارض مع ملة أو دين . واستمدوا مترجميهم من أماكن مختلفة ، من جنديسابور كجبريل بن بختيشوع ، أو من الحيرة كحنين بن اسحق ، وابنه اسحق (٩١١ م) ، أو من حران كثابت بن قرة (٩٠١ م) .

أسهم هؤلاء جميعا فى ترجمة الكتب الطبية ، إلى جانب آخرين ، أمثال : يوحنا بن ماسويه ، وجيش بن الأعسم الدمشقى (القرن التاسع م) ، وعيسى ابن يحيى بن ابراهيم (٨٣٠ م) ، وقسطا بن لوقا البعلبكى (٩١٢ م) . ترجموا عن الفارسية والهندية ، أو عن السريانية التى كانت لغة العلم فى المدارس الدينية الشرقية قبل الإسلام ، وقد ترجم إليها قدر من الأصول اليونانية . وفى عصر المأمون حاول العرب أن يتداركوا ما فات السريان ، فصصحوا أخطاء الترجمات القديمة ، وعولوا على الأصول اليونانية ، وترجموها منها مباشرة إلى العربية . عرفوا كثيرين من أطباء اليونان ، وعنوا خاصة بأبقراط ، وجالينوس . فترجموا للأول «العهد» المعروف ، «كتاب الفصول» ، «كتاب الأخلاط» ، «وكتاب الماء والهواء» ، وربما نسبوا إلى

أبقراط ما ليس من صنعه . وحرصوا على أن يترجموا مع هذه النصوص شروح جالينوس لها ، وتعليقه عليها . وقد تخصص حنين بن اسحق في مؤلفات جالينوس ، جد في جمعها وألف أسلوبها بحيث استطاع أن يحكم على النص إذا كان بقلم جالينوس أو منحولا . وجند حوله تلاميذ وأتباعا لمعاونته في ترجمتها ، وجوّد ذلك ما وسعه . ومن أهم ما نقل منها إلى العربية : «المجموعة الجالينوسية» ذات الستة عشر جزءا ، و «التشريح الكبير» . «كتاب الأدوية المفردة» ، «كتاب تركيب الأدوية» ولم يسلم جالينوس ، هو الآخر ، من كتب منحولة تعزى إليه .

وبهذا فتحت الترجمة على العرب أبواب الثقافات الكبرى ، وربطت الماضي بالحاضر . وعززت نهضة علمية نشيطة .

٢ - مرحلة التلخيص والشرح

وهي امتداد للمرحلة السابقة ، وتبدو واضحة في القرن التاسع الميلادي . وقد اضطلع بها في الأغلب المترجمون أنفسهم ، فلم يقنعوا بترجمة النصوص القديمة . بل لخصوها أو علقوا عليها . وراهم لون خاص من التأليف سموه «مدخلا» في الطب أو الكيمياء ، وكأنما حاكوا في ذلك مدخل فورفويوس الصوري في المنطق (ايساغوجي) ، ووضعوا كتباً مجملة ، مثل : «كتاب الأغذية» ليوحنا بن ما سويه ، و «كتاب عشر مقالات في العين» لحنين بن اسحق ، و «كتاب فردوس الحكمة» لعلي ابن رين الطبري (القرن العاشرم) الذي جمع بين الطب اليوناني والطب الهندي . وإذا عرفنا أن عليا هذا كان أستاذا لأبي بكر الرازي (٩٣٢ م) أدركنا كيف مهدت هذه المرحلة للمرحلة الثالثة والأخيرة .

ومما يلفت النظر في هذه المرحلة التي نحن بصددتها انتشار المستشفيات أو البيمارستانات كما كانت تسمى ، وهذه التسمية نفسها تدل على أصل الفكرة ، فالمستشفيات العربية محاكاة للبيمارستانات الفارسية ، وبخاصة بيمارستان جنديسابور الذي كان يديره جرجيس بن بختيشوع قبل انتقاله إلى بغداد . وقد تبارى الخلفاء والأمراء في إقامة هذه المستشفيات ورعايتها ، وانتشرت في العواصم الكبرى ، كالري ، وبغداد ، والقاهرة ، وتونس . ومن بينها البيمارستان المنصوري بالقاهرة الذي

سمى أيضا بمارستان قلاوون ، ولا تزال بعض آثاره باقية . وفي كل مستشفى أجنحة للرجال ، وأخرى للنساء ، والمرضى أنفسهم موزعون على حسب مرضهم في أقسام خاصة في الجراحة ، أو للأمراض الباطنية . وفي المستشفى أماكن لإعداد الطعام ، وأخرى لتركيب الدواء . وعرف الأطباء العرب نظام المرور على المرضى وتفقد أحوالهم ، كما عرفوا نظام المناوبة الذي يضطلع فيه كل طبيب بنوبة محددة ، وعرفوا أخيرا الاجتماعات العلمية (كونصلتو) لدراسة حالات مرضية معينة . ولم يغفلوا أمر التمرّض ، وأسهمت فيه المرأة بنصيب ، وتولت على وجه الخصوص تمرّض بنات جنسها . ويشير ابن أبي أصيبعة إلى شيء أشبه ما يكون بالعيادات الخارجية ، ويتحدث المؤرخون عن بعض المستشفيات المتنقلة في الأسفار والحروب .

وصاحب هذا إقبال الطلاب على تعلم الطب إقبالا ملحوظا . وأفسح لهم المجال في هذه المستشفيات التي كانت ميدانا واسعا للممارسة والتجربة ، ونظم هذا التعليم ووضعت له قيود وشروط واضحة ، فلا يقبل فيه إلا من هم أهل له ، ومكنوا من الدرس والبحث تحت إشراف متصل . ولا يسمح لهم بمزاولة الطب إلا إن ثبتت كفايتهم ، وحصلوا على إجازة من المشرفين عليهم . وما أشبه هذه البيمارستانات بمستشفياتنا الجامعية ، وقد تخرج فيها أعداد كبيرة . ويكفي أن نشير إلى أن بغداد وحدها كان فيها نحو ٨٠٠ طبيب في أوائل القرن العاشر الميلادي .

فسبقت البيمارستانات الإسلامية في نظمها وإدارتها ، في أقسامها وتخصصاتها ، في دروسها العملية وتجاربها ، المستشفيات الحديثة بعدة قرون . وأعجب بها الغرب منذ عهد بعيد في السلم والحرب ، وسعى إليها في الأندلس لكي يحظى بما فيها من طب وعلاج .

٣- مرحلة الأصالة والابتكار

هي فعلا مرحلة النقد والتحجيص . والبحث والتجربة . والكشف والاختراع . هي مرحلة الطب العربي في صورته الكاملة ، وقد سميت بحق العصر الذهبي للطب العربي . بدأت في القرن العاشر الميلادي ، واستمرت إلى نهاية القرن الثاني عشر . ظهر فيها أطباء أعلام ، منهم موسوعيون أحاطوا بالطب في جوانبه المختلفة ، ومنهم

متخصصون في بعض الفروع كالجراحة وطب العيون . نقدوا كبار أطباء اليونان ، وأكملوا ما فاتهم وأصلحوا أخطاءهم . بحثوا وجربوا ، فكشفوا عن الجديد والمبتكر في ميدان التشخيص والعلاج . ووضعوا كتباً ومؤلفات استرعت الأنظار ، وعدت حلقة هامة من حلقات الفكر الطبي في التاريخ .

ومتى بلغت حضارة أوجها ، أخذت تتراجع شيئاً فشيئاً ، ولم تطفئ القرون الستة التالية للقرن الثاني عشر الميلادي إلى الطب العربي شيئاً يذكر ، اللهم إلا اكتشاف الدورة الدموية الصغرى .

(ج) مشاهيره وأعلامه

لسنا في حاجة أن نشير إلى أن المسلمين عرضوا لفروع الطب المختلفة ، فوقفوا طويلاً عند الأمراض الباطنية والجهاز الهضمي ، والجهاز التنفسي ، وأمراض القلب ، والجهاز العصبي . وشغلوا بالجراحة والتشريح ، وأمراض النساء ، وأمراض الفم والأسنان ، وعنوا بأمراض العين عناية فائقة ، ونبغ في كثير من هذه الفروع أئمة أعلام . والطب عند العرب مربوط بالصيدلة برباط وثيق ، وما أجدر الصيدلة العربية أن يوقف عليها بحث خاص . وأكتفى بأن أشير إلى أن لهم في العقاقير والأقرباذين باعاً طويلاً . و « مفردات ابن البيطار » (١٢٤٨ م) وحدها تشمل نحو ألف وأربعمائة نوع ، ولم يسبقه أحد إلى وصف ثلثمائة منها ، وقد ترجم الكتاب كله إلى اللاتينية وأفاد منه العالم الغربي .

ولا سبيل لأن نقف هنا عند كبار أطباء الإسلام جميعاً ، ونكتفي بأن نعرض لبعض مشاهيرهم ، وبخاصة من امتدت آثارهم إلى الحضارة الغربية ، وراعينا في عرضهم التدرج الزمني .

١ - أبو بكر الرزاي (٩٣٢ م)

طبيب وفيلسوف ، وهو دون نزاع طبيب الإسلام الأول ، وجالينوس العرب كما سمي . جمع بين العلم والعمل ، بين النظرية والتطبيق . درس الطب اليوناني دراسة وافية ، ووقف من الفاضلين أبقرط وجالينوس موقف التأييد تارة والمعارضة تارة أخرى ، أخذ عنها واستدرك عليها . وكان يعيب على أبقرط إيجازه وغموضه ،

وعلى جالينوس إطنابه وإسهابه ، وهو بلا شك في مستواهما إن لم يزد عليهما . أدار
مستشفين كبيرين في الري وبغداد زمنا طويلا ، شخص فيها أدواء كثيرة . ووصف
لها دواءها . وقام بتجارب تجل عن الحصر . لاءم بين طب القياس وطب التجربة .
ورسم منهاجا واضحا في تشخيص الداء . يستقصى فيه أعراض المرض . أو
«العلامات» كما يسميها . ويرتب هذه العلاقات بحسب أهميتها ويقارن بعضها
ببعض . وهو دون نزاع من أعلام الطب الإكلينيكي في التاريخ . وفي كتابه
«الحاوي» خير شاهد على ذلك ، ويقع في اثنين وعشرين جزءا . ويشتمل على
مئات من مشاهدات وتجارب لا تحلو من دقة وطرافة ، وقد ترجم إلى اللاتينية منذ
عهد مبكر ، وله كتاب آخر أوضح ترتيبا وأيسر تناولا ، وهو كتاب «المنصوري»
الذي ترجم كذلك إلى اللاتينية . ووضع كتابا ثالثا باسم «الفصوص» . محاكاة
لأبقراط وجالينوس ، وعده مدخلا للصناعة وطريقا للمتعلمين . وليس الرازي
الأستاذ بأقل شأنا من الرازي الطبيب فقد علم وربي . وناقش واختبر . وخرج جيلا
من الأطباء المهرة ، وعرض في كتابه «محنة الطبيب» لدقة المهنة وعظم مسئولية
الأطباء .

ولن نقف هنا عند الرازي الفيلسوف الذي شغل المستشرقين أكثر مما شغلهم
الرازي الطبيب ، ورحم الله كامل حسين الذي عرف له قدره بين الأطباء العالمين .
وكشف عن كثير من جوانبه ، وكم نأمل أن يتابع شباب الأطباء المسيرة وأن يحيا
تراث هذا الطبيب العظيم .

٢ - علي بن عباس (٩٨٣ م)

ذرادشتي اعتنق الإسلام ، ولد في الأهواز ، وأولع بدراسة الطب . وتتلذذ
للرازي ، وكان أشهر تلاميذه . عاش في حاشية بني بويه زمنا . وصنف لعضد الدولة
كتابا في الطب سماه «الملكي» الذي عرفته اللاتينية . ولعله أول ما ترجم إليها من
كتب الطب العربي على أيدي قسطنطين الإفريقي في أوائل القرن الحادي عشر بعد
موت مؤلفه بقليل .

وفى وضوحه وحسن ترتيبه ما حبيه إلى طلاب الطب من الغربيين ، وقد حرصوا على الإفادة منه إلى أن طغى عليه «كتاب القانون» لابن سينا .

٣ - الزهراوى (١٠١٣ م)

طبيب أندلسى عنى خاصة بالجراحة ، وهو بحق أشهر جراحى العرب . والواقع أن دراسة الطب العربى لم تقف عند المشرق ، بل امتدت إلى شمال أفريقيا والأندلس ، وظهر فيها أطباء متعاقبون أخذوا عن المشاركة ، وأضافوا شيئا مما خلفته الحضارة الرومانية ، أو مما هداهم إليه بحثهم وتجربتهم . وجراحنا فى مقدمتهم ، رفع شأن الجراحة وسما بها إلى مستوى فوق «الصناعة اليدوية» التى كانت تطلق على التشريح . وكان يرى أن صناعة الطب طويلة ، وعلى الراغب فيها أن يرتاض أولا فى علم التشريح لكى يقف على وظائف الأعضاء وهيئتها ، «والأطباء فى رأيه كثيرون بالإسـم قليلون بالفعل» . وقد ألف كتابا فى الطب سماه : «التصريف لمن عجز عن التأليف» . استخدم فيه آلات جراحية جديدة ، رسمها ، وحدد طرائق استعمالها . وشرح أيضا عمليات جراحية كشق البطن ، وتفتيت حصا المثانة .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ، فكان له أثر يذكر فى الجراحة الأوربية على مدى خمسة قرون .

٤ - ابن سينا (١٠٣٧ م)

فيلسوف وطبيب ، وهو بعد الرازى ، الإمام الثانى فى الطب العربى وإن لم يزاوله عملا مزاولة طويلة . أولع به فى صباه الباكر ، وتعمق فى درسه وبحثه ودعى وهو شاب إلى معالجة بعض الأمراء . إلا أنه فيلسوف قبل أن يكون طبيا ، ولا شك فى أنه أكبر أطباء الفلاسفة المسلمين ، وكثيرا ما وجهت فلسفته طبه ، وما طغى منهجه الفلسفى على تأليفه الطبى . وأخرج كتابا يعد بين الكتب العالمية فى الدراسات الطبية ، ونعنى به كتاب «القانون» ، وهو فى الطب «كأصول» إقليدس فى الهندسة ، أو «كالجسطى» لبطلميوس فى الفلك . فيه تلخيص للطب اليونانى والعربى ، ويشتمل على خمسة أجزاء ، فى الأمور الكلية ، والأدوية المفردة ، والأمراض الجزئية ، والأمراض العامة ، والأدوية المركبة (الأقرباذين) . وقد لخصه ابن سينا فى أرجوزته

الشهيرة التي قام ابن رشد (١١٩٨ م) بشرحها والتعليق عليها . وفي كتاب « القانون » استيعاب ودقة . وترتيب ووضوح . وصادف في الشرق والغرب نجاحا لم يصادفه كتاب طبي آخر .

ترجم إلى اللاتينية منذ عهد مبكر . وبقى يدرس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون ، من القرن الثاني عشر إلى السابع عشر ، وأعيد طبعه باللاتينية غير مرة ويقال إنه طبع في القرن السادس عشر وحده عشرين مرة .

٥ - ابن زهر (١١٦٢ م)

وليد أسرة أندلسية اشتهرت بالطب في أجيال متلاحقة ، وأبو مروان أشهر أفرادها . عاصر ابن رشد وصادقه ، ووضع كتاب « التيسير في المداواة والتدبير » . عرض فيه لبعض الأدوية كالتهاب الأذن الوسطى ، وشلل البلعوم ، ووصف عملية استخراج الحصى من الكلى . وعملية فتح القصبة الهوائية . اعتبر التجربة خير مرشد . وعده معاصروه أقرب الأطباء العرب من أبقراط في تفكيره .

ترجم كتابه إلى اللاتينية بعد موته بنحو ١٨ سنة . وأثر في الطب اللاتيني تأثيرا ملحوظا .

٦ - ابن النفيس (١٢٨٨ م)

زميل ابن أبي أصيبعة مؤرخ الطب العربي . ورئيس أطباء مصر في القرن السابع الهجري ، ومع ذلك بقي مغمورا عدة قرون . ولم يكشف عنه إلا في آخر الربع الأول من هذا القرن ، حين اهتدى في مكتبة برلين إلى مخطوط من أهم مؤلفاته الطبية . وهو « موجز القانون » . وقد أسهم الدكتور بول غليونجي في هذا الكشف إسهاما واضحا ، ودفع شكوكا لا أساس لها حامت حول طبيعته . فرد على الشبهة القائلة بأن ابن أبي أصيبعة أهمله ، وشرح في وضوح الدورة الدموية الصغرى التي اهتدى إليها . والواقع أن ابن النفيس ألع بالتشريح برغم معارضة بعض رجال الدين له . ونوه بما حققه جالينوس وابن سينا في هذا المضمار . وخرج على ما قالاه . وفسر الدورة الدموية تفسيراً لم يسبق إليه . فكان أول من فطن إلى وجود أوعية دموية داخل

عضلة القلب . وقال إن الدم يمر في مسام دقيقة . هي بمثابة الأوعية الشعرية ، ومهد بذلك لدورة هارفى الكبرى .

ومن الثابت أن كتاب « موجز القانون » الذى شرحت فيه فكرة الدورة الدموية الصغرى قد ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٤٧ م ، وأن متأخرى البادويين عرضوا لهذه الدورة . ومن الثابت أيضا أن هارفى (١٦٥٧ م) تتلمذ لهم ، ومن الجائز أن يكون قد وقف على شىء مما قال به ابن النفيس . ومهما يكن من أمر فإن كتابه « موجز القانون » قد وجد فى آخر المطاف طريقه إلى اللغة اللاتينية .

* * *

هؤلاء هم مشاهير أطباء العربية ، وقد ذاع صيتهم فى اللاتينية بدرجة لا تقل عما عرفوا به فى العربية ، ولا يزال تراثهم مهملًا بيننا ، وما أجددنا أن نحياه ، وأن نكشف عن هذه الكنوز الدفينة . وأذكر أنه طلب إلى منذ ثلاثين سنة أن أشرف على إخراج « كتاب القانون » لابن سينا إخراجا علميا دقيقا ، وآسف أنى لم أوفق لذلك .

(د) أثره وموقف الغرب منه

استلقت العلم العربى ، والطب بخاصة ، أنظار الأوروبيين منذ القرن الحادى عشر . وقفوا على كثير من ثماره فى السلم والحرب ، فعرفوه سلما عن قرب فى صقلية والأندلس ، ولم يترددوا فى أن يعرضوا مرضاهم على أطباء العرب ، وأن يسعوا إليهم . وقضت الحروب الصليبية عليهم بأن يستعينوا بهؤلاء الأطباء ، ومن أمراء الصليبيين من اتخذ له من العرب طبيبا خاصا . وأدركوا أن العلم قوة ، فحاولوا أن يتسلحوا به ، وأن يفيدوا منه ما استطاعوا .

واتجهوا إلى ترجمة المراجع العلمية العربية منذ عهد مبكر ، وتوافرت لديهم منها ثروة يعتد بها . ولا يكاد يوجد مؤلف علمى عربى هام إلا ونقلوه إلى لغتهم ، ومن بين ما نقلوه ما فقدنا أصله العربى ، ولم يبق منه إلا الترجمة اللاتينية ، وسبق لنا أن أشرنا إلى بعض مترجماتهم الطبية . ولا تزال حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية إبان القرون الوسطى فى حاجة إلى درس أشمل وأكمل . وقد يترجم النص الواحد أكثر من مرة ، تبعا لاختلاف المترجمين ، أو رغبة فى التجويد والإتقان ، وعن طريق

هذه الترجمة سرت ألفاظ عربية إلى اللغة اللاتينية . وإذا كانت ترجمة قسطنطين الأفرقي (١٠٨٧ م) في القرن الحادى عشر لم تكن دقيقة ولا وافية ، فقد تلتها ترجمات أخرى أدق وأكمل في القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وعينت بها هيئات متعددة في نابلى وسالرم بايطاليا . أو في بلرم بصقلية أو في طليطلة بالأندلس . وأنشئت معاهد لتعلم العربية واليونانية . وأسست في طليطلة مدرسة لتعلم العربية والعبرية ، وتخرج فيها ريمون مارتان الدومنيكانى (ق ١٣ م) الذى كان على اتصال بالقديس توما الأكوينى (١٢٧٤ م) . وبعد هذا بقليل استطاع ريمون لول (١٣١٦ م) أن يقرر تخصيص كرسي للغات الأجنبية في الجامعات الأوربية .

وطليطلة وبلرم أكبر مركزين للترجمة في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ففي طليطلة جمع كثير من المراجع العربية ، وكان يبع المخطوطات في ذلك العهد تجارة رائجة . وأعان على ذلك ألقونس الحكيم ملك قشتالة (١٢٨٤ م) الذى كان نصيرا للعلم والفلسفة ، وكان يريد بالقشتالية أن تصبح لغة عالمية . فنظمت جماعات للترجمة ، وعلى رأس كل جماعة مراجع أو مراجعون . وقد مر بطليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة ، وعلى رأسهم جيرار الكريمنى (١١٨٧ م) ، ذلك الإيطالى الذى اجتذبه الترجمة ، فقصده طليطلة . وعنى خاصة بالمراجع الطبية ، وترجم منها فيما يقال - نحو ٨٧ مؤلفا ، ولعله كان يشرف على نشاط جماعى يعاونه فيه آخرون .

وفى بلرم نشطت حركة الترجمة في القرن الثالث عشر تحت رعاية الإمبراطور فردريك الثانى الذى شاء أن ينشر العلوم الإسلامية ، وكان على صلة بحكام الشرق وولاته ، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة من المؤلفات العربية . ودعا إليه كبار المترجمين وفى مقدمتهم ميشيل اسكوت (١٢٣٥ م) ، تلك الشخصية شبه الأسطورية التى كانت مملوءة نشاطا وحركة ، والتى عزى إليها عدد غير قليل من المترجمات ، وما أشبهه بجيرار الكريمنى . فوزع العمل على التلاميذ والأعوان ، وتابع نشاطهم وراجع إنتاجهم . وقد حرص الإمبراطور فردريك على أن يوزع ترجماته على الجامعات الأوربية ، رغبة في نشر العلم ، وبدافع من منافسة البابا فى الغالب .

وبعد الترجمة يحنى البحث والتمحيص ، وقد حظيت بعض الكتب الطبية العربية في أوربا ببحوث ودراسات متلاحقة ، وكان « كتاب القانون » لابن سينا أعظمها

حظا . فبلغ مكانة لا يدنو منها إلا كتب أبقراط وجالينوس . وأقر البابا كليمنت الخامس (١٣١٩ م) أن يمتحن الطلبة إجباريا في « قانون » ابن سينا ، وفي « المنصوري » للرازي للحصول على إجازة الطب . وتنافست الجامعات الأوروبية في الدراسات الطبية ، فعولت جامعة مونبلييه على كتاب « القانون » حتى منتصف القرن السابع عشر ، وحذت حذوها جامعة فيينا وجامعة فرنكفورت ، وتبنت جامعة بولونيا آراء ابن زهر . وسبق أن أشرنا إلى أن جامعة بادوا عرضت في القرن السادس عشر لموضوع الدورة الدموية ، على نحو شبيه بما انتهى إليه ابن النفيس . واستمرت الفرماكولوجيا العربية سائدة في أوروبا حتى القرن التاسع عشر . وطبعت أجزاء من مفردات ابن البيطار بكريمونا عام (١٧٥٨ م) .

وفي وسعنا أن نقرر أن الطب الأوربي مدين للطب العربي في القرون الوسطى وعصر النهضة ، بل في التاريخ الحديث ، ولم يتردد منصفو علماء الغرب في تقرير ذلك ، ونشير فقط إلى ما قرره سارتون ، وهو من أكبر مؤرخي العلوم المعاصرين في أوروبا وأمريكا ، ويقول : « إنه لعمل عظيم أن ينقل العرب إلينا كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، على أنهم لم يكتفوا بهذا ، بل غدوها وسموا بها ، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة » .

* * *

خاتمة

في ضوء ما تقدم نلاحظ أن الطب العربي خطا خلال أربعة قرون أو يزيد خطوات فسيحة ، ووصل إلى درجة مرموقة ، وهو دون نزاع أدق وأشمل من الطب القديم والمتوسط ، وقد مهد للطب الحديث ، وسبقه إلى بعض ما يباهى به . ومن الظلم أن يقاس بأقيسة الطب المعاصر الذي تهيأت له أسباب ووسائل لم تهيأ لأطباء العرب ، على أن الطب المعاصر نفسه في تطور مستمر ، وطب القرن العشرين يسمو دون نزاع على طب القرن التاسع عشر ، وفي كل يوم يكاد البحث الطبي يأتينا بجديد ، ولم يخرج الطب العربي عن سنة هذا التطور بحال .

وقد أشرنا إلى أن هذا الطب احتفظ بتراث اليونان ، وهذا نفسه عمل جليل ، ولكنه لم يقف عند مجرد حفظه ونقله ، بل عدله وصححه ، وأضاف إليه ما لم تضيفه ثقافة أخرى في التاريخ القديم والمتوسط . فكشف عن أدواء لم تكن معروفة ، وتقنن في وسائل الدواء والعلاج ، وخطا في الجراحة خطوات لم تكن يسيرة في القرون الوسطى ، وبقيت الجراحة في الغرب عالة عليه عدة قرون ، واستحدث أدوات جراحية لم تكن معروفة من قبل . وسما بالطب الأكلينيكي إلى درجة يفيد منها أطباء اليوم ، وما أجدرهم أن يقفوا عليه . وتوسع ما أمكن في الكشف عن الحشائش والعقاقير الطبية ، وتوفر له منها زاد كبير . وعنى بالتقريض ، وقدم أمثلة رائعة في تنظيم المستشفيات وإدارتها والإشراف عليها .

تدارك العرب على أبقراط وجالينوس ما لم يسبق إليه أحد ، وطبيب كالرازي نقح أبقراط وهذب أكثر مما صنع جالينوس . وإذا كان أطباء العرب قد سلموا بمبادئ لا نسلم بها اليوم ، ولم يتخلصوا تماما من نظرية الأخلاط اليونانية فإنهم أفسحوا للتجربة مجالا انتهى بالقضاء على هذه النظرية . ولا يزال قدر من مؤلفات الطب العربية يعد إلى اليوم بين أمهات الكتب الطبية ، وهو مخطوط ، وما أحوجه أن يرى النور .

مراجع

- ١- ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الفكر ، بيروت ١٩٥٧
- ٢- ابن جليل ، طبقات الأطباء ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٣- بول غليونجي ، قطوف من تاريخ الطب ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٤- جمال الدين القفطى ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣
- ٥- محمد كامل حسين ، موجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٦- محمد كامل حسين ، في الطب والاقربازين ، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية القاهرة ١٩٧٠ .

٧- Cambridge. Arabian Medicine Cam bridge, Browne, 1921.

٨- Meyerhof. Science and Medicine in Legacy of Islam. 1947.